هل نعتمد المَحضَرَةَ نمطاً؟
(وجهة نظر، وخلاصة تجربة استغرقت 45 عاماً)

أ.د. يحيى جبر

في هذه الورقة، أتقدم منك، عزيزي القارئ ، بتجربتي في التعلُّم والتعليم، التي ابتدأتها متعلماً العام 1950، ومعلماً في مراحل التعليم المختلفة العام 1962 حين أنهيت الثانوية العامة، وتعاقدت مع البعثة التعليمية السعودية في القدس؛ لأعمل مدرساً في تهامة عسير جنوبَ المملكة العربية السعودية. وكانت مسيرتي التعلمية كمسيرة غيري من الطلاب؛ عاديةً جداً، ولكنني تعلمت كثيراً من البيئات التي عملت بها، تعلمت لهجات وعرفت عادات، وشاهدت بيئة مختلفة كلياً عن بيئة فلسطين؛ في تضاريسها ونباتها ومناخها؛ ما وسع مداركي وفتحها على أمداء بعيدة، وحبب إليَّ اللغة العربية، لاسيما أن المجتمع الذي انتقلت إليه -تهامة- كان ما زال يعيش حياة بدائية جداً؛ لا طرق، ولا سيارات، ولا خدمات، ولا ماء، ولا كهرباء، وكانت لهجتهم بالنسبة لي، ولزملائي الفلسطينيين، أشبه بلغة أجنبية؛ ولم نتمكّن من استيعابها إلا بعد أشهر عدة، وكنا نشعر بالسعادة ونحن نكتشف أسرارها، ونفتح مغاليقها.

ثم كان أن انتسبت العام 1966 لقسم اللغة العربية بجامعة بيروت العربية، وانتقلت لأعمل في نجران وتبالة وصبيخة قحطان وخيبر، وفي خيبر مر بي ذكر حمّاها في الشعر لأول مرة، وصادف أن أُصبتُ بها في أواخر العام الدراسي، وأذكر أننا توجهنا للمدينة المنورة في طريق عودتنا للأردن، فقامت حرب 67 بينما كنت في المستشفى، حيث كنت "أردش" مع الأطباء عن الحرب، وكان فينا من ذهب بعيداً في أحلامه حتى توقع أن نعود إلى بلادنا عبر مطار اللد! وهناك أيضاً كنت أدرس عن دارة جُلجُل وأنا في حوطتها، وعن السراب وهو يلفُّني بملاءته، وعن الضب والجربوع وأنا اصطادهما، وأقف مطالعاً وصف طرَفة بن العبد لناقته وأنا واقف إزاءها أقيس عليها ما أقرأه من شعره.

هناك رأيت كبش عمرو بن معديكرب الزبيدي، وحصان عنترة، يدلل على المنايا، يشري ويبيع، وأطلال أمّة تلوح كباقي الوشم في يد غانية، رأيت كلب علي بن الجهم وتيسه ودلوه، ورأيت في التهمان بأزيائهم وشعورهم المضفرة مرسلة على أكتافهم -رأيت تأبط شراً، وعروة، والسليك، رأيت البيد ورمالها، والظباء كما وصفوها بأشعارهم، وجزعت وادي السوبان مع زهير بن أبي سلمى، ووجدتني مرات كثيرة أنزف الماء من الركايا، وأمتحه من الآبار، وكم سهرت مع بنت الدهر أعاني من حمّاها ما أعاني.

وهناك كنت أدرس في الكتاب المقرر مادة عن النقوش اليمنية القديمة، وأنا في خيبر الجنوب أتنقل من يعراء إلى المُعزب أجمع النقوش؛ أنسخها، ولو كان عندي آلة تصوير لصوّرتها، كنت أرسلها لأستاذي السيد يعقوب بكر أول أول، لم يكن يعرفني إلا من خلال رسائلي التي تتضمن نقوشاً، ومفردات من لهجات القوم، ولما انتقل إلى مصر، وذهبت إلى هناك لإكمال الدراسة، كان عميداً لكلية الآداب، عرّفته بنفسي، وذكّرته برسائلي، فرحّب بي، وأشرف على أطروحتي للماجستير، بل لقد أحال إليّ كتابه (نصوص في فقه اللغة) لأعلّق على حواشيه، واعداً بنشر ملاحظاتي في طبعته الثانية، لولا أن القدر عاجله.

وهناك، طاردت الصيد، وبنيت الخيمة، ففي العام 1971، آخر عام قضيته هناك، في الصبيخة في الربع الخالي، ابتنيت خيمة في حاشية القرية، كانت ملتقى للبدو، كنت فيها كتوفيق كنعان حين يستقبل مرضاه، يسألهم عما يحفظونه من التراث، ويدوِّنه، وفي خيبر الشمال (خيبر المدينة المنورة) كنت مع خمسة من وجوه القوم نسمر في كل ليلة في بيت واحد منا، بالدَّور، يحدثون بما عندهم، وأقص عليهم ما كنت أحفظه من أخبار امرئ القيس، والمَيّاسة، ورحلة المتنبي، ونحوها، وهناك، كم بتّ أرقب النجوم أنتظر انجلاء الليالي كلما اقترب أوان العودة للأهل في فلسطين.

وجدت في البيئة من حولي عوناً، وأي عون، على الدراسة والفهم والحفظ، لقد كانت مدرسة مفتوحة تحتضن التراث العربي وتاريخ الأمة، كيف لا وقد كانت المنبع الذي أمدّ قرائحهم بما حفظته يد الزمان؟ وقد انعكس ذلك كله على تحصيلي؛ فلم يعد حبراً على ورق، بل صار صوراً تضجُّ بالحياة، مفعمة بالحركة، تحكي قصة من كتاب الزمن لم تُسمع من قبل، كانت بالنسبة لي كتلك الزهرة البرية التي جادت بشذاها للريح دون أن يستمتع به إنسان، كما قال الشاعر الإنجليزي، أو كتلك اللؤلؤة القابعة من الزمن الأول في قعر البحر، لم يهتدِ إليها غوّاص من قبل. كما لم يعد تحصيلي سماعاً من أستاذ، ولا قراءة في كتاب مطبوع أو مخطوط، بل كانت الأشياء من حولي تجري على عواهنها في بثٍّ مباشر، وكانت القراءة في الكتاب الجامع للكتب كلها، في مظاهر هذا الكون وظواهره، حتى لكأنني تلقيت درساً على يد عليّ بن أبي طالب، وهو يقول: القرآن كتاب الله المنطوق، والكون كتاب الله المخلوق.

لقد أغرتني أشعارهم والصحراء بقرض الشعر، ومن الطريف أنني قلت أبياتاً ثلاثة في الربع الخالي حتى إذا انتقلت إلى الشق الغربي من الوطن

العربي؛ حيث وجدت الصحراء كالصحراء، والإنسان كالإنسان – أكملت القصيدة (العام 1974) ونشرتها في **مجلة الخفجي** العام 1988، وكانت أجمل المناسبات عندما ألقيتها في أعضاء المجامع اللغوية العربية العام 1995 حين خرجنا في رحلة من القاهرة إلى الفيوم، عندما تَصَدَّر الحافلةَ المرحومُ أحمد صدقي الدجاني طالباً من المشاركين أن يقدموا للركب ما يسليهم، كانت الصحراء من حولنا بساطاً ذهبياً، هيّجني، فبادرت إلى إلقائها، فنالت من إعجاب القوم ما أسعدني.

وهناك، في الشطر الغربي من الوطن الكبير، كان أستاذ الجغرافية، أحمد عبد الرحمن رحمه الله، قد علّمنا أن ثمة في أقصى الجنوب الغربي من ليبيا واحة اسمها غات البركات، لا تدرون كم كان يثير فيّ ذلك الاسم من المشاعر، ولا مدى عمقها، ولّما تعاقدت مع وزارة التربية والتعليم الليبية، حرصت على أن أذهب للتدريس في غات البركات، . . . كل من عرف ذلك أنكره إشفاقاً عليّ، لبعدها وأوبئتها، والقوم هناك يتكلمون التارقية (لغة الطوارق–التماشق) والهوسا (الحوصة) إلى جانب العربية، فوجئت من أول يوم أن اسم البلدة هو غات فقط، أما البركات، فهي بلدة البَركة التي تقع على مقربة منها، ظن أستاذي أنهما اسم واحد لبلدة واحدة، نظراً لتوحدهما في المكان على الخارطة تقريباً.

وهناك، وجدتني لا شعوريا، أبادر إلى جمع لغة الطوارق (من الفرع الحامي البربري)، وجمعت من أخبار القوم وعاداتهم، حتى تجمعت لي مادة كتابي (رحلة البربر من المشرق إلى المغرب؛ دراسة لغوية تاريخية). وهناك، وجدت نفسي أعمل في كُتّاب القرية (المدرسة القرآنية) بصحبة زميليّ العربي الأنصاري ومولاي إدريس، اللذين كانا يُدرّسان على الطريقة التقليدية، يأتيهم الأطفال بألواحهم، يكتبون لهم السورة من القرآن الكريم، وينصرف كل منهم إلى ناحية من الساحة، حتى إذا حفظها عاد إلى الشيخ يتلوها عليه، فإذا اطمأن إلى حفظه أمره بغسل لوحه في مكان مخصص لذلك، لا تصل إليه النجاسات، ثم راح يكتب له السورة التي تليها ولو لم يكن زملاؤه قد انتهوا من حفظ السورة الأولى بعد، ما يترجم فرادة التعليم في أجمل صورها، ويجيء منسجماً مع ديمقراطية التعليم من اصطلاحات التربية الحديثة.

وهناك، كنت أعرف شجيرة العشَر، فقد سبق أن حفظت أبياتاً من الشعر ورد ذكرها فيها، كقول امرئ القيس:

أمرخ خيامهمو أم عشر　　بل القلب في إثرهم مستطر

وقول أبي نواس يذم البيئة العربية:

بلاد نبتها عشر وطلح　　وأكثر صيدها كلب وذيب

وتعلمت منهم في المشرق أن عصارة جذوره تشفي من لدغة الأفعى، وأذكر أنني جمعت كمية من حطبه العام 1971، حين حججت مع نفر من بادية صبيحة قحطان، جعلناها كومة كبيرة، وأوقدنا فيها النار، ونمنا حولها في العراء، ولما انتقلت إلى غات، خرجت مع أحد زملائي إلى الصحراء نقرأ في كتاب الله المخلوق، فرأيت شجر العشر مثمراً؛ له ثمر كبار بحجم المانجو ولكنه أجوف إلا من ألياف بيضاء قليلة، وكنا في ذلك المكان القصيّ نعاني قلة الخضراوات والفواكه، فخطر ببالي أن نسيّل لعاب زملائنا في السكن، بأن نأخذ من ثمره فيتوهموا أنه مانجو، وقد حدث ذلك بالفعل، وكان مدعاة لضحكنا في ذلك المكان البائس. ولما عدت إلى فلسطين، كنت أعرّف طلابي بخبرتي المكتسبة كلما مر بهم ذكر هذه الشجيرة، وتعلّمت من جديد، زيادة على ما كان، أن سكان الغور الفلسطيني يحوكون من ألياف ثمره قُبّعات يعتمرونها، ولاسيما كبار السن.

هكذا يتعلم الإنسان؛ تتراكم المعلومات عبر التجارب، وترتبط بالأدب وعلوم اللغة والثقافة، ولاسيما إذا كان هناك اتصال بالبيئة أو بالحياة الاجتماعية، ما يعني تكامل المعرفة مع الحياة وانصهارهما معاً في كيان واحد.

مُخرَجات التجربة

لكل فعل مردود من نوع خاص، فأنا أشعر براحة غامرة حين أكون بين طلابي محاضراً، لأنني أعطيهم من المعارف ما أدرك أنه جديد، يصب المعرفة في قالب مغاير لما ألفوه، موافق لطبيعة الحياة في شموليتها وتداخل نشاطاتها، مشحون بحرارة تسري فيه جراء تفاعلي معه بشكل ظاهر، والأهم من ذلك أنني أشعر بهم يستقبلون ما ألقي إليهم بآذان صاغية، تعي ما تسمع، وتنجذب إليه دون أن تستثقله، فيشجعني هذا السلوك على مواصلة العطاء بزخم، وإسهاب، فأستفيض في الموضوع وما يتصل به من المعارف المختلفة، محققاً نوعاً من التكامل يقوم على تنوّع المعلومات المطروحة، ويبحر في الأزمنة والأمكنة، وبهذا يتحقق نوع فريد من التبادلية بين الطالب والمحاضر.

نموذج من درس في النحو

الشاهد النحوي على اختصاص الفاء بجواز عطفها ما يصلح لأن يكون خبراً على ما لا يصلح لذلك:

وإنسانُ عيني يحسِرُ الماء تارةً　　فيبدو، وتاراتٍ يَجِمُّ فيغرق

إذ عطف بالفاء جملة "يبدو" التي تصلح لأن تكون خبرا للمبتدأ "إنسان" على جملة "يحسر" التي لا تصلح لأن تكون خبرا له. وبعد بيان القضية النحوية أنثني لتحليل البيت على النحو التالي، دون أن يكون هناك تنظيم للعملية، ودون أي تكلف.

إنسان العين بؤبؤها، لأنه كأنه بحركته ودوره في النظر هو الإنسان نفسه، والدليل عليه، ومن ذلك قول جرير في العيون:

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به　　وهن أضعف خلق الله إنسانا

وفي هذا مع الإنسان، الذي هو أنا وأنت، جناس تام. وقوله: يحسر بمعنى ينقبض ويتراجع، يريد دموع عينيه، فيظهر البؤبؤ، ولكن الدمع، أحياناً، قد يجتمع فيغرورق البؤبؤ، نقول: حَسَرت الدابة؛ إذا لم تتمكن من السير بحملها، أو راكبها؛ لاسيما إذا كان الطريق مُصْعِداً؛ حدث ذات يوم أن كنت، بصحبة زملائي، في طريق العودة من تهامة عسير إلى أبها، عاصمة عسير من البلاد السعودية، في طريق عودتنا آخر

العام الدراسي 1963/ 1964م، عبر عقبة فَوّ، لم تكن هناك سيارات، وكانت وسيلة التنقل الوحيدة الحمار (موتور هش)، وإلا فسيراً على الأقدام (موتور 11)، ولما وصلنا إلى أسفل جبال السراة، وهي امتداد لجبال نابلس والبلقاء، حرنت الحمير ولم تتقدم، فرآنا بعض القوم كانوا راجعين من السفر، فلما عادوا إلى بلدهم الذي خرجنا منه، راحوا يحدّثون الناس بخبرنا، وكان مما قالوه: رأينا امّدرّسة وقد حسر بهم امحمار بأسفل امعقبة؛ يطمطمون، أي يقلبون لام التعريف ميما، وهي لغة حمير.

ويجم، تعني يجتمع، وكل أصل يتصدره جيم فميم فهو ينصرف لدلالة تقع على معنى الجمع والاجتماع، تعالوا نتبصر في المفردات التي تنطبق عليها هذه المقولة، وهنا يبدأ الطلبة في ذكر المفردات، وأقوم بتحليلها واحدة فواحدة، بسرعة؛ جمع ومنه الجامع والجامعة. الجمل وهو كتلة ضخمة من لحم وعظام، والجملة من (بائع جملة مقابل بائع بالمفرق) وجَمل قطع الشحم أن تُذاب لتصبح جملة واحدة، وجمد الماء وجَمَسَ إذا انخفضت درجة الحرارة فغدا متماسكاً صلباً (مجتمعاً غير سائل) والجمر لا يكون إلا لكثرة، ذلك أن أقل ما توقد به النار عودان استناداً إلى ما ورد في شعر نصر بن سيّار، عامل بني أمية، في أواخر عهدهم، على خراسان:

وإن النار بالعودين تُذكَى وإن الحرب أولها الكلام

وفي هذا إشارة إلى أن العمل الناجح لا بد له من طرفين يقومان به، الولادة من اثنين؛ مذكر ومؤنث، والكهرباء من سالب وموجب، والمغناطيسية من شمال وجنوب، والمطر من سماء لأرض، والعمل البشري بشمال ويمين، والدنيا مركبة من ثنائيات كالخير والشر، والأولى والآخرة وفوق وتحت، وبعد وقبل، والحب والكره، والطول والقصر، وغير ذلك مما لا حصر له، وينحصر الوجود والنشاط البشري بين حدّيه. فالجمر أصلاً هو الحطب يحترق، فيتقطع، ويصبح متعدداً في الموقد، فهو إذاً كثير مجتمع، والجمح النطح، وذلك بالرأس وجُماع البدن من ورائه، وهكذا في كل مادة أتناولها. وإني لأدرك أن في ذلك ابتعاداً عن محور الدرس، ولكنه في نظري أنفع للطالب، إذ يقدم له المعرفة متكاملة على الوجه الذي ينبغي أن تكون عليه.

وإني لأذكر لطلابي بين حين وآخر أن عليهم أن يستقوا العلم على هذا الأساس، وأن يمزجوا مدخلاته بعضها ببعض، وموضحاً لهم أن التخصص أصل في المشكلة التي تعانيها الأمة، وكثيراً ما أشبِّه لهم مواد اللغة على اختلافها بالرغيف من الخبز نريد أن نأكله، ولكن ليس فينا من يستطيع التهامه دفعة واحدة، لذلك نضطر إلى تقسيمه لُقَماً ليسهل مضغه وابتلاعه، فلقمة صرف، ولقمة نحو، وأخرى لقمة أدب، وتلك لقمة عروض، وأخرى بلاغة، وهكذا، ولكنها تعود لتتحد في المعدة من جديد، وكذلك الأمر في تفاضله وتكامله بين فروع العلم الأخرى؛ إذ تتكامل جميعاً في المعرفة الكلية.

أخلص مما تقدم إلى أن المعارف اللغوية مرتبة في ذاكرتي على شكل خوارزميات تتداعى تلقائياً، فهي مركبة على نحو يمكنني من طرحها للطلبة متكاملة متداخلة، وتقدم الدرس اللغوي لهم على وجهه الحق، ما يأتي منسجماً مع ما كان عليه السلف في تعليمهم وتعلمهم، إذ غلب عليهم الطابع الموسوعي لا التخصصي، وقد كان ذلك واحداً من الأسباب التي أدّت إلى ازدهار العلم وتقدم المعرفة في العصر العباسي.

وأجد في ذاكرتي فيضاً من الشعر، الذي أستشهد به على ما يعرض من القضايا اللغوية، والحوادث التاريخية، ولكنني إذا شاركت في مسابقات القوافي لا أتفوّق على الطرف الآخر؛ على الرغم من أن ما أحفظه قد يكون أضعاف ما عنده، ذلك أنني أحفظ الشعر مترابطاً مع غيره من المعلومات في أنساق تتفق مع تكامل المعارف اللغوية والأدبية المختلفة، وليس مع المسابقات الشعرية.

إن المعلومات المختلفة تُنَضَّد في دماغ الإنسان وفقاً لنظرته للحياة، واستناداً إلى الفلسفة التي تصوغ نمط حياته وفكره، وفي هذا يكون التفاوت بين إنسان وآخر، أما في ما عداه، فهم جميعاً متساوون، بل ربما اشتركوا فيه مع الأنعام. كما أن المعلومات التي يختزنها كل منا قرين هذا اللفظ أو ذاك لتختلف من إنسان لآخر وفقاً لاختلاف العوامل الموجهة لاكتساب المعرفة، والحواس التي تنقل إليه ما يقع خارجه، فما هو مهم عندك قد يكون تافهاً عند غيرك، وما يلزم الحداد لا يلزم الخياط، . . . وهكذا.

****

إن اختلاف النظرة للتعليم والأهداف المنوطة به، هي التي جعلت المجتمع الإنساني يكتشف، يوماً بعد يوم، غايات جديدة للتعليم واكتساب المعارف "ومن هنا تتضح أهمية تقديم المعرفة للطلاب في سبيل تهيئتهم للتفكير الفعال" (كيف وزميله، ص17) في الوقت الذي ينظر فيه معظم المربين "إلى اكتساب أساسيات المعرفة والمهارات الأساسية على أنها الهدف الأولي للتعليم (كيف وزميله، ص208).

ومن هنا كان تقويم التربية قياساً بمدى إسهامها في تحقيق الأهداف العامة للبلاد (مكتب التربية العربي، ص9)، وهذا ما أكده محمد الأحمد الرشيد في مقدمته لكتاب "التربية والتنمية الإقليمية، ص8"، إذ اعتبر التعليم عنصراً مهماً من عناصر التنمية الإقليمية والاجتماعية والثقافية، وإلا كان ضرباً من الترف، بل ربما انتكست نتائجه فكان ضرباً من العبث ومضيعة للوقت.

ولما كانت هذه هي طبيعة التعليم وحقيقته، فإنه لا بد له من التجدّد ومواكبة المتغيرات التي تستجد؛ ليس على الصعيد الإقليمي فحسب، ولكن على الصعيد العالمي، ذلك أن العالم أصبح -كما يقولون- قرية صغيرة، وفي أدبيات الإسلام الحنيف، وفي تراث الأمة وسننها التربوية ما يترجم هذه القضية ممثلاً في ما ورد في الأثر "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، أو ما يسمى بلغة العصر التعليم مدى الحياة (life long education). وسبب ذلك أنه "إذا لم يتواصل التعليم، ويتوافر على مدى رحلة حياة المرء كلها فسوف تصبح مهاراته، بشكلٍ متسارع، مهارات عفا عليها الزمن" (عبد المعطي، ص24)، نظراً لتسارع المستجدات في مجالي العلوم التطبيقية والتقنية، إضافة إلى ما يواكب ذلك على الصعيد الروحي من السمو الذي يتحقق للنفس جراء الاستزادة من العلوم والمعارف، ذلك أن عملية التعليم الحقيقية، وبغض النظر عن وجه الانتفاع بها، لا تحدث إلا "عندما تصبح المعلومات

جزءاً من الذاكرة الطويلة المدى، وهنا تحدث عملية التغيير في البنية المعرفية للفرد (كيف وزميله، ص208)، وبهذا يصبح المرء قادراً على توليد المعرفة بدلاً من اكتسابها، ذلك بما يتاح له من مقدرة على ممارسة التفكير الاستنتاجي الذي "يعتبر الحصيلة النهائية لعملية اكتساب المعرفة الإنسانية، وذلك لاستعمال المعرفة في بناء أسس معرفية معقدة وجديدة (كيف وزملاؤه، ص210). فهل تستطيع المحضرة أن تنهض بالرسالة التربوية على أصولها؟ بحيث تحقق اكتساب المعرفة المتجددة، وتطبع بميسمها نمط الحياة؟

وقد تتساءل عزيزي القارئ: كيف يمكن أن يكون شكل المحضرة التي نقترح اعتمادها نمطاً للتعليم في ضوء الانفجار المعرفيّ وهذه المستجدات التي تتواتر على شكل متوالية هندسية؟ فأقول: إن تغيّر أنماط الحياة يجب أن يواكبه تغيّر في أنماط التفكير، وما يصلح للصحراء لا يصلح بشكله لغيرها، ما يعني أن علينا أن نطور نمطاً حديثاً من المحاضر تحتل فيه وسائط النقل المعاصرة موقع الجمل، والسجاد مكان الرمل، والورد مكان أبعار الإبل، وشاشة الحاسوب بدلاً من لوح الكتابة وهكذا، دون أن نخلي الساحة من مرافق المحضرة التقليدية التي لا سبيل إلى الاستغناء عنها، كالأماكن المفتوحة، وأشكال التعاون المختلفة، والتنقّل الذي يمكن أن يستبدل بالرحلات العلمية إلى البادية، وإلى المفاعلات الذرية على حد سواء، وقطعان الماشية التي يمكن أن تستبدل بمصانع وجمعيات ومزارع وأسواق تجارية ونحوها.

ويحضرني هنا قول خليل مطران في تبدّل الأحوال من زمن لآخر:

تغيّرت الدنيا وقد كان أهلها يرون متون العيس ألين مضجع

ولكن على الرغم من هذه الحقيقة، فإن الإبل لا تزال قوام حياة كثير من الأقوام، ولا يزال كثير من أنماط الحياة القديمة باقياً إلى اليوم، فالأرض تعيش القرن الحادي والعشرين، ولكن أشكال الحياة التي يعيشها أهلها متفاوتة في القرون التي تنتمي إليها؛ فبعضهم سبق زمانه، وبعضهم يعيش في إبّانه، وآخرون ما زالوا مُخَلّفين على قارعة الزمن . . . راتعين في القرونَ السحيقة . . . لم يدخلوا عصر التدوين بعد!

ما هي المحضرة؟

تتعدد أنماط التعليم الحديثة، وتتنوع؛ نظراً لما أتاحته التقنيات وتجارب الشعوب من إضافات أثرتها، ومكنتها من التطور، أما القديمة منها فلا تعدو –في الحضارة الإسلامية– أن تكون من طراز واحد؛ هو ما عرف باسم الكتّاب في المشرق العربي، أو الزاوية في ليبيا، والمحضرة في موريتانيا وبلدان الصحراء المجاورة. وهي شبيهة بالمدارس المتنقلة التي كانت تصاحب الهجر في السعودية، كهجرة زهير في حاشية الربع الخالي الشمالية الغربية، بل ما أشبه هذا النمط التربوي بما أثر من إرسال النبي، صلى الله عليه وآله، من مكة إلى بادية بني سعد بن بكر ليتعلم الفصاحة!

وتختلف المحضرة عن مرادفاتها في بعض الأنشطة التي تجعلها أنجع من سواها، وأبعدها أثراً، وأكثرها انسجاماً مع فلسفة التعليم من حيث كونه وسيلة تؤدي إلى ما بعدها، وغاية يمكن التوسل بها.

فالمحضرة جامعة شعبية متنقلة، ومجتمع متكامل، ولكنه منظم بطريقة خاصة، فهناك مكان واسع قد يكون مخيماً، وهذا المرفق يمتاز بأنه قابل للنقل من ناحية لأخرى، بحسب الظروف التي تسود في منطقته، وصاحب القرار في ذلك هو الشيخ أو الفقيه أو المالماني (المعلماني أو المعلم بلغة الهوسة من مسلمي غرب إفريقية، وهم يتبعون النمط نفسه، لاسيما في كانو النيجيرية وتمبكتو من بلاد مالي والتكرور). وجمهور هذا المجتمع ليسوا من أجناس وأعمار مختلفة كالمجتمع العادي، بل هم أطفال وصبية تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين، وربما تخطت ذلك بقليل، لاسيما أن القوم يؤمنون بأنه لا كبير على العلم، وأنه يطلب لذاته من المهد إلى اللحد، وبغضّ النظر عن بعد الشُقّة، حتى لو كان في الصين.

وبالرجوع إلى أدبيات المحاضر، نجد أن من القوم من أعادها إلى الأصل اللغوي (حظر) فهم يشتقونها منه لعلاقة بالحظر بمعنى المنع، يريدون أنها تمنع المنتسبين إليها من مخالفة أحكام الدين، وتحظر عليهم تخطي الحدود، أو لعلاقة بالحظيرة معنى المراح الذي تأوي إليه الماشية، ولا نؤيدهم في هذا التوجيه، ونرى، مع الطرف الآخر، أن اشتقاقها من الأصل (حضر) الذي منه المحاضرة من الاصطلاحات الجامعية، و(القرية التي كانت) حاضرة البحر، أي تقوم على شاطئه، وهي من هذا لأن الطلبة يَفِدون إليها (يحضرون) من أماكن شتى؛ فهي اسم مكان منه. وأعتقد أن الصبغة البدوية التي تسود المجتمع الصحراوي، هي السبب في بروز المحظرة بالظاء وتقدمها على الصيغة الأخرى التي بالضاد، لأن صوت الضاد يكاد لا يسمع في معظم البيئات العربية، ولاسيما البادية.

جاء في موقع المحضرة نت: "وقد تضاربت آراء الدارسين والباحثين حول اشتقاق كلمة (المحظرة) فبينما يرى بعضهم أنها مشتقة من **الحضور**، وذلك لحضور الطالب درس الشيخ –أبدلت الضاد فيها ظاء مُشالة بفعل التداول المحلي– يميل آخرون إلى أنه لم يقع تغيير في نوعية الحروف، وأنها "مفعلة "من **الحظيرة**، وذلك بناء على طبيعة المساكن التي كان يأوي إليها الطلبة وهي عبارة عن مكان يرتب على عجل؛ من الحشيش أو أغصان الشجر، فيما ينحو فريق ثالث منحى يرى فيه أن أصل الكلمة مشتق من **الحظر** بمعنى المنع، إذ أن الطالب يُحظر عليه أن يقوم فيها بأي فعل أو قول يحظره الشرع الإسلامي ويحرمه. وعلى الرغم من هذا الاختلاف في أصل الجذر اللغوي، فإن ذلك لم يحل دون الإجماع على التعريف الاصطلاحي الذي باتت تدل عليه تلك الكلمة في المجتمع الموريتاني، إذ أنها كما عرفها الباحث الموريتاني الخليل النحوي في كتابه "بلاد شنقيط المنارة والرباط" عبارة عن "**جامعة بدوية شعبية متنقلة تلقينية فردية التعلم طوعية الممارسة**"، وفي تلك المؤسسة التعليمية الحرة يتلقى الطلبة (تلاميذ كما يعرفون محلياً) مختلف العلوم اللغوية والشرعية على يد الشيخ ابتغاء وجه الله، وصار للمحضرة مع مرور الزمن أدبياتها واصطلاحاتها، كالمناهج المحضرية والأسلوب المحضري، ولقد انعكست بساطة الحياة البدوية على الأسلوب المحضري، إذ لم يعرف الدرس التقليدي لهذه المؤسسة العريقة أسلوباً ثابتاً إذا ما استثنينا بعض المحاظر في المدن، وإذا أردنا توضيحاً أكثر لذلك، فإن الدرس المحضري يبدأ إلقاؤه حين يجلس الشيخ جلسة وقار، ويتحلق الطلاب حوله ثم يستمع لفقرة دراسية "نص" كتبها الطالب وحفظها مسبقاً، ثم يشرح الشيخ فكرة فكرة،

وقد ينقل الطالب شاهداً أو فكرة مهمة في أوراق خاصة معدة لذلك تسمى في المصطلح المحضري "بالكناش". (هذه المعلومات وكثير مما يليها مقتبسة من موقع المحضرة نت، بتصرّف، وقد سبق أن مارست التعليم على هذه الطريقة في كُتّاب الزاوية الإسلامي في غات جنوب غرب ليبيا العام 1972).

ثم يفسح الطالب المجال لطالب آخر، وهكذا إلى أن ينتهي الدرس اليومي لكل أعضاء الحلقة التي قد يكون بعضها يشترك في مرجع دراسي واحد "الدُّولة" بمعنى المتداول، أي الذي يستخدمه الطلبة واحداً بعد واحد لعدم توفر نسخ منه، وقد سمعت عرب تهامة عسير يقولون لكبير الضيوف إذا لم يكن عدد الفناجين كافياً: فنجانك ما يدول، أي لا ينتقل منك لغيرك حتى تكتفي من القهوة، ومنه جاءت الدولة من الدول في الاصطلاح السياسي، ثم يتواصل التكرار في حلقات حتى يحفظ الشرح.

وقد تملي ظروف الحل والترحال ومتطلبات الحياة البدوية اليومية على شيخ المحضرة أن يشرح للطلاب وهو يرعى ماشيته أو يسقيها أو يطلبها خارج الحي، وقد يدرّس راجلاً أو راكباً أو متكئاً، ولعلهم يربطون بين العلم والعبادة متمثلين في الوقت نفسه قوله تعالى: "فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم" صدق الله العظيم.

أما الطالب المحضري فيبدأ كتابة النص الدراسي على اللوح الخشبي، ثم يصححه بعد استماع الشيخ إلى قراءته الأولى قبل استماعه للشرح، وقد يصحح بعض الطلاب لبعضهم إذا كانت المحضرة ذات طابع جامعي؛ تحوي عدداً كبيراً من الطلاب بمستويات مختلفة.

وتوفر بيئة المحضرة ونظامها البدوي حالة اختبار دائمة لمعلومات طالب العلم، ففي فترة الدراسة كلها يواصل شيخ المحضرة رصد مستويات الطلبة، ويراقب تطوير مؤهلاتهم المعرفية والسلوكية والخلقية معاً، ويستعين في ذلك بالمناظرات، والألغاز، والأحاجي، وتبادل المعلومات، ويساعد الطلبةُ الشيخَ في تقييم مستويات زملائهم الذين هم دونهم، كونه يعيش معهم في محيط عائلي مفتوح، ما يجعل معايير الإجازة والتخرج بديهية ودقيقة.

ويشرح الشيخ الدرس باللهجة المتداولة، وإذا اقتضى الأمر الاستنجاد بما يتطلب وسيلة توضيحية يلجأ الشيخ إلى التراب كوسيلة توضيح لقاعدة ما أو ترتيب صور ما، وربما لجأ إلى أحد الكتب المتخصصة لتوضيح مشكلة ما أو لمعرفة بعض الآراء.

ويمكن اختصار الفلسفة التي تكرّسها المحضرة، وتترجمها على أنصع وجه ممكن، في ما أثر من قول الشافعي رحمه الله: علمي معي، حيثما يمت يتبعني، قلبيَ وعاء له، أو جوف صندوق، إن كنت في البيت كان العلم فيه معي، أو كنت في السوق كان العلم في السوق. ولا يقتصر دور شيخ المحضرة على التعليم فقط، بل يأوي إليه ذوو المسائل الملحة والقضايا العالقة لحل مسائلهم، وفض قضاياهم، فهو مفتي الحي وقاضيه، كما أنه من الناحية الاجتماعية ذو رأي مسموع وجناب مهيب يساعده على حل كثير من المشاكل التي تحصل بين الأفراد أو الجماعات -لا يقوى عليها إلا خاصة الخاصة.

وتظل المحضرة مفتوحة أمام الطلاب، وإذا وصل الطالب إلى مرحلة ما من العلم يرى الشيخ أنه أصبح قادراً على التصدر للتدريس يسمح له بتأسيس محضرة جديدة يؤمها الطلاب لأخذ العلم، وربما يرحل معه بعض طلاب شيخه إن رغبوا أو أمر الشيخ بذلك، وفي حالة التوسع والتخصص والتحصيل العالي يكتب الشيخ إجازة للطالب المنتهي في مروياته في فن ما، أو في كل الفنون، لكن لا يشترط في المتصدر للتدريس أن يحمل تلك الإجازة العصية.

ولا ينقطع الطالب عن التحصيل إلا في العطل الأسبوعية التي تبدأ ضحوة الأربعاء حتى مساء الجمعة، إضافة إلى عطل تقتضيها مناسبات دينية، ففي عيدي الفطر والأضحى يعطل الطالب خمسة أيام قبل العيد وخمسة بعده، ويهتم الموريتانيون برعاية احترام هذه العطل، كما يتجلى في قولتهم المشهورة "من حصّل في أيام التعطيل، عطله الله في أيام التحصيل".

لقد تأسست المحضرة في فضاء بدوي يتميز بشظف العيش وصعوبة الحياة، وقد انعكس ذلك على حياة الطلاب داخل المحضرة؛ فكانوا يتأثرون بأيام الضنك والشدة، والطالب في المحضرة إما أن يكون موسراً يصطحب معه حلواباً تكون مورده الاقتصادي، علاوة على بعض الزاد، أو يكون فقيراً "مؤبداً" عند الشيخ ينفق عليه (منقطعاً لخدمته، من التأبيد بمعنى القطع)، أو يشمله التكافل من لدن الحي أو في المحضرة من خلال (الراحلة) وهي عبارة عن مجموعة من الطلاب تتعاون في مواردها الاقتصادية، والتناوب على إعداد الطعام وتحضيره، وقد سجل طلاب المحضرة هذه الظروف الصعبة في أشعارهم، كما قال أحدهم:

تلاميذ شتى ألّف الدهرُ بينهم ... لهم همم أجلُّ من الدهر
يبيتون لا كنّ لديهم سوى الهوا ... ولا من سرير غير أعمدة غبر

وهذا الوصف دقيق في عرض ما يعانيه طلاب المحظرة. وكما هو حال المجتمع لا يفتأ الطلاب في المحضرة يتنقلون، لكن ذلك الترحال لا يثنيهم عن طلب العلم، بل يظل التعلم ديدنهم وهم على ظهور الجمال، كما صور ذلك العلامة المختار بن بونا - رحمه الله - بقوله:

ونحن ركب من الأشراف منتظم ... أجلّ ذا العصر قدراً دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بها نبيّن دين الله تبيانا

ويعتمد طلاب المحضرة على أخصاص يبنونها من الحشيش وأغصان الشجر، وقد ينقطع الطالب عن أهله فترة طويلة لا يثنيه ما يعانيه من الجوع وقلة الزاد عن طلب العلم والتحصيل، وقد صوّر أحدهم الفرق بين همم الطلاب حينما تشتد الأمور بقوله:

إذا لاح شهر الصيف لا بد من فتى ... تنقل خوف الجوع من "لوحه" دهرا
ترى قاصر الهمات يشتاق أهله ... وذو الهمة العليا إذا يألف الفقرا

ويحظى شيوخ المحضرة وطلابها باحترام الجميع وتقديرهم؛ نظراً لجسامة المهمة التي يؤدونها للمجتمع، المتمثلة في تعلم الشرع الإسلامي

واللغة العربية، ما أضفى عليهم مكانة خاصة يؤمن به المجتمع كله، ويقدرها حق قدرها، وقد خلقت تلك الحياة القاسية والظروف الصعبة تكافلاً اجتماعياً عاماً بين أفراد المجتمع، ومع طلاب المحضرة بشكل خاص، تجلى في هبات واستحقاقات مادية يُلزمها المجتمع لأفراده تضامناً مع هذه الفئة التي أخذت على عاتقها دور التعلم، أبرزها:

- شاة أو بقرة أو بدنة تدفع للطلاب عند كل زفاف في الحي أو الأحياء التي يمكن أن يصل إليه الطلاب وتسمى (شاة العادة).
- ظهر كل ذبيحة.
- عنق كل نحيرة من الإبل.
- مد من كل ما تأتي به القوافل إلى الحي.
- ثلث ماء البئر أو ربعه إن وردوا.
- إن مر الطلاب على حي به شخصية علمية يمتحنهم أهل الحي في بعض المعضلات اللغوية أو الشرعية واستظهار (أثمان) من القرآن الكريم، وفي حالة التوفيق والنجاح يمدونهم بهبات وهدايا.
- إذا أكمل الطالب القرآن الكريم توزع عليه مجموعة من الهدايا.
- إذا أنهى الطالب ربعاً من القرآن الكريم يقوم بـ(جمع الختمة)، وذلك بالمرور على كل بيت رافعاً لوحه مكتوباً عليه آيات من الذكر الحكيم، ثم يقوم بقراءة بعض الأدعية التي تشجع على الإنفاق.
- إذا أنهى الطالب نصاً من النصوص يجب عليه أن يطعم الطلاب وجبة أو شاة تسمى (تمغر) ويتسامح المجتمع مع كثير من تصرفات طلاب المحضرة التي لو حدثت من غيرهم لكان لها شأن كبير، ما لم تصدم نصاً شرعياً. (من مقالة لأحمد أبي المعالي؛ كاتب وشاعر موريتاني مقيم بالإمارات).

وجدير بالذكر أن مشرق الوطن العربي شهد أنماطاً تشبه المحضرة إلى حد بعيد، ما ظل سائداً في بعض أنحائه إلى أمد قريب، ففي حاشية الربع الخالي الشمالية الغربية، عرفنا هجرة زهير، وهجرة قحطان (الصبيخة) التي سعدت بالعمل فيها العام 1971، ونحوهما مما كان منتشراً في وادي الدواسر، وقد كان المدرسون يلتحقون بالأعراب في مضاربهم، ويرتحلون معهم إذا ارتحلوا، وينزلون إذا نزلوا.

وأخيراً؛ أليس هذا هو وجه الحياة بلا قناع؟ بغض النظر عن اختلاف بيئاتها وما يترتب على ذلك من تفاوت في أنماطها؟ أجل، هكذا يكون العلم غاية ووسيلة، وتكون الحياة مدرسة مفتوحة. وما أجمل صنيع دكرولي حين أطلق على مدرسته التي أنشأها سنة 1907 اسم "المدرسة التي تعد للحياة عن طريق الحياة"، وذلك هو ما حدا بجان جاك روسو في كتابه *Emile* إلى القول: "إن الحياة هي المهنة التي أود أن أعلمه إياها، فالمدرسة الحديثة إذن تسعى إلى تكوين الفرد خلقياً واجتماعياً بجانب تكوينه عقلياً" (صقر، 53).

أ.د. يحيى جبر
أستاذ علم اللغة، رئيس قسم اللغة العربية
جامعة النجاح الوطنية

المراجع

- صقر، محمد جمال (1958). **اتجاهات في التربية والتعليم**، مصر: دار المعارف.
- كيف، جيمس وهمبرت ويلبرج (1995). التدريس من أجل تنمية التفكير، ترجمة: عبد العزيز البابطين، الرياض: مكتب التربية العربي.
- مكتب التربية العربي، "مكانة المعلمين"، وثيقة لتطويرها، ترجمة: فخري رشيد خضر.
- مكتب التربية العربي (1984)، **التربية والتنمية الإقليمية**، الرياض.
- عبد المعطي، يوسف (مترجم) "أمة معرضة للخطر"، **مجلة رسالة الخليج العربي**، عدد 12، سنة 1984.
- موقع: Islamonline.net.
- موقع: Almahdara.net.

من مساق "الدراما والكتابة والقص".